

العقم والعلاقات الزوجية

د. غني ناصر القريشي

لمحة موجزة

يقول ﷺ في كتابه الكريم: ﴿ الْمَالُ وَالْبُنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾

بهذه الآية الكريمة يبين الله ﷻ أَنَّ الأبناء جمال وقوة في هذه الدنيا الثانية، فهم من يُضفون السعادة على حياة الآباء والأمهات، فلا عجب من دمعات دُرُفت بسبب حالات العقم التي حالت دون الشعور بهذا الجمال وبفرحة الأمومة والأبوة.

تعدّ حالات العقم من المشكلات الطبية الشائعة في جميع المجتمعات، ورغم تطور الطب إلّا أنّ هذه المشكلة في تزايد مستمر في العالم، حيث يحتاج زوج واحد من كل ستة أزواج إلى مراجعة اختصاصي العقم خلال فترة الزواج، وتقدر نسبة انتشار العقم بحوالي (١٠ - ١٥%) من الناس، وقد يكون العقم من أحد العوامل الرئيسية في هدم بناء الحياة الزوجية، فالأطفال - لاسيما - في المجتمعات العربية والشرقية هم الرابط الأساس بين الرجل والمرأة. ويعدّ العقم إحدى الظواهر ذات الأثر الحاسم على مستوى الفرد والأسرة، فعلى مستوى الفرد يترك العقم آثاراً نفسية تتعلق بالشعور بعدم الاستمرار وعدم التمتع بما يتمتع به الآخرون ما ينعكس سلباً على التفكك الأسري والاجتماعي.

فما المقصود بالعقم؟ وما أسبابه؟ وما آثاره النفسية والاجتماعية على الزوجين؟

يقصد بالعقم عموماً عدم قدرة أحد الزوجين أو كلاهما على الإنجاب. وهو عدم القدرة على الحمل بعد مرور سنة كاملة من العلاقة الزوجية الصحيحة دون استخدام وسائل لمنع الحمل، فلا يجب أن نعدّ المرأة عقيماً إلّا بعد مرور سنة كاملة على زواجها وبشرط أن يكون زوجها مقيماً معها بصفة دائمة أو شبه دائمة وبينهما علاقة زوجية صحيحة. والمعنى الأخير للعقم يرتبط بالمرأة فقط، وهذه الصورة هي القائمة في كثير من المجتمعات - لاسيما - مجتمعات العالم الثالث على الرغم من أنّ الأبحاث العلمية أثبتت أنّ المرأة مسؤولة عن (٤٠%) فقط من حالات العقم في حين يتحمل الرجل المسؤولية عن (٤٠%) من تلك الحالات، و (٢٠%)

مسؤول عنها الطرفين وبصورة مشتركة، أي أنّ المرأة ليست وحدها مسؤولة عن هذه المشكلة.

أسباب العقم

من العوامل التي يمكن أن تسبب أو تسهم في إحداث العقم (عند المرأة) كثيرة جداً نذكر منها بإيجاز ما يلي:

١- عدم التوافق في العلاقة الزوجية وما يتبع ذلك من صراع وشجار يؤثران على التوازن الهرموني وعلى انقباضات وانبساطات عضلات الرحم والأنابيب وغيرها ما يؤثر على عملية التبويض وعلى استقرار البويضة في الجهاز التناسلي الذي يحتاج إلى حالة من الاستقرار ليتمكن من حضانة البويضة الملقحة ورعايتها في هدوء حتى تصبح جنيناً.

٢- وجود صراعات داخلية لدى المرأة حول فكرة القرب من الرجل وإقامة علاقة جنسية معه وذلك بسبب مشكلات نفسية عميقة الجذور أو بسبب الخوف الاجتماعي المبني على المبالغة في التحريم، أو استقذار هذه العلاقة وعدّها دنساً يلوث كيانها الروحي.

٣- الشخصية الذكورية العدوانية (المسترجلة) والتي ترفض بوعي أو بغير وعي الدور الأنثوي المستقبل والحاضن للحيوان المنوي ثم للبويضة الملقحة ثم للجنين، ووصف ذلك على أنه عدوان عليها تقاومه بالرفض. وهذه الشخصية لديها صراعات كثيرة حول دورها بوصفها أنثى.

٤- الشخصية الأنثوية غير الناضجة بيولوجياً ونفسياً، وفيها تكون عملية التبويض ضعيفة أو يكون الرحم صغيراً أو الأنابيب ضيقة، وتكون غير ناضجة انفعالياً أيضاً.

٥- البرود الجنسي والذي يسببه أو يصاحبه نشاط هرموني باهت وضعيف.

٦- الزوجة التي تأخذ دور الأم لرجل سلبي واعتمادي، فالتركيبية النفسية لها بوصفها أم لهذا الزوج (الطفل أو الابن) تحدث خللاً في العمليات البيولوجية فلا يحدث الحمل.

٧- وجود أم مسيطرة ومستبدة تجعل المرأة تكره دور الأمومة وترفضه.

٨- وجود رغبات متناقضة في الحمل وعدمه فهي ترغب فيه لتحقيق الدافع الفطري لديها في أن تكون أمًا، وترفضه في الوقت نفسه خوفاً من مشكلاته وتبعاته أو لشعورها بأن حياتها الزوجية تعسة وغير مستقرة.

٩- شدة التعلق بالإنجاب، فالرغبة الجامحة في حدوث الحمل ربما تؤدي إلى نزول البويضات قبل نضجها.

١٠- القلق والاكتئاب والصدمات الانفعالية المتكررة تؤثر على الغشاء المبطن للرحم وتؤدي إلى انقباضات كثيرة وغير منتظمة في الأبواق والأنابيب والرحم وعنق الرحم.

١١- العيوب الخلقية في شكل الرحم أو وجود الالتهابات المزمنة أو أسباب هرمونية.

ومن أسباب العقم عند الرجال ما يأتي:

١- الضغط الأسري الذي يؤثر على الرجل ويقلل من كفاءته وهذا ينعكس على الوظائف العضوية لجسم الرجل.

٢- الضعف الجنسي.

٣- الأمراض التناسلية التي تؤثر على الحيوانات المنوية.

٤- إن التدخين قد يؤثر على كفاءة الحيوانات المنوية ولكن بنسبة بسيطة ويؤثر على أداء الخصية أو كفاءتها أيضاً ومن ذلك فإنه ليس سبباً رئيسياً لحدوث العقم لكنه من الأسباب المساعدة لحدوثه.

٥- إن السلوك الغذائي ووظيفة الشخص قد تكون سبباً لحدوث العقم فمثلاً إذا كان يعمل في مكان حار فإن ذلك يؤثر على عمل الخصية وتؤثر على الإنجاب وأيضاً هناك بعض الأدوية تؤثر على الحيوانات المنوية.

انعكاسات العقم على العلاقات الزوجين داخل الأسرة

لعدم الإنجاب - لاسيما - في البلاد العربية والشرقية عواقب نفسية وعائلية واجتماعية فهذه المجتمعات تعطي قيمة كبيرة للذكورة المتسيدة في المجتمع، وحتى تستمر هذه السيادة لأبد من الإنجاب، بل وإنجاب الذكور بصورة خاصة، من هذا المنطلق فإن الإنجاب يعزز تلك الذكورية وبدونه تكون سيادة الذكورة منقوصة وذلك ما لا يرضاه المجتمع.

ويمكن تحديد أهم الانعكاسات التي يتركها العقم على كيان الأسرة على النحو الآتي:

١- تأخر الإنجاب في كثير من الأحيان يؤدي إلى العديد من المشكلات الزوجية فرغبة الرجل الشديدة في الأبوة يقابلها رغبة المرأة في أن تمارس رسالتها بالحياة بوصفها أم وليس كيان معطل قد تكون مدعاة لحصول المشكلات التي يمكن أن تنتهي بالطلاق بين الزوجين.

٢- أن تأخر الإنجاب يزيد من حالات القنوط والاكتئاب والقلق والمشكلات الزوجية والأسرية. ولإثبات تلك الحقيقة قام فريق طبي في جامعة نورثويسترن في مدينة شيكاغو في الولايات المتحدة تحت قيادة الدكتور (برانيغان) بتحديد درجة الإصابة بالقلق والكآبة لدى (٧ رجالاً) و(٢٦ امرأة) مصابين بالعقم تم استفتاؤهم بواسطة استبيان خاص للقلق والاكتئاب، وأظهرت النتائج أن حوالي (٥٦%) من النساء وحوالي (٣٠%) من الرجال مصابون بدرجة عالية من القلق وحوالي (٣٦%) من الرجال وحوالي (٥٣%) من النساء يشكون من الاكتئاب ما يؤكد تأثير العقم بمعدل أعلى لدى الزوجات مقارنة بأزواجهن، ولكن الجدير بالذكر أنه بالرغم من تلك الأعراض النفسية لم يجد هذا الفريق أية اضطرابات زوجية بين الزوجين في تلك الدراسة.

٣- أن تأخر الإنجاب يؤدي في كثير من الأحيان إلى خفض معدل حياة الرجال - لاسيما- الشباب منهم ويسبب لهم الكآبة التي تقود بدورها إل العجز الجنسي الذي يزيد من حدة هذه المشكلة وتعقيدها.

٤- للعقم أثراً نفسية كثيرة على المرأة فهي تشعر بالدونية وتفقد الثقة في هويتها بوصفها أنثى لأنها غير قادرة على أداء مهمتها في الإنجاب وغير قادرة على أن تلبي نداء فطرتها في أن تصبح أماً وأحياناً تشعر بالذنب تجاه زوجها- لاسيما- إذا اعتقدت أنها السبب في حرمانه من أن يصبح أباً، وهذه المشاعر إذا تضخمت لديها فربما تدخل في طور الاكتئاب الذي يجعلها تبدو حزينة ومنعزلة وفاقدة للشهية وفاقدة الرغبة في أي شيء. وبعض النساء العقيمات تزداد لديهن الأنانية والنجسية وتوجه مشاعرها نحو ذاتها فتهتم بنفسها اهتماماً زائداً وفي نفس الوقت ينتاب بعضهن رغبة جارفة في شراء الأشياء واقتنائها مثل: الملابس بوصفه سلوك تعويضي لفراغها الداخلي الهائل. وفي أحيان أخرى تصبح المرأة غاضبة وتوجه عدوانها نحو الزوج الذي تراه سبب حرمانها من نعمة الإنجاب، أو توجه عدوانها نحو أهلها وتتهمهم بأنهم السبب في أنها جاءت إلى الحياة غير مؤهلة لدورها الأنثوي أو أن طريقتهم في التربية أثرت عليها فأصبحت عقيماً، وهي في هذه الحالة تدخل في صراعات كثيرة مع من حولها وتصبح سريعة الانفعال ومتسلطة على زوجها وأهلها وتسبب المشكلات حتى لجيرانها.

وهذا يسمى بـ (صدمة العقم) التي تحدث بعد أن تتأكد المرأة من استحالة الحمل، وفي هذه الحالة إمّا أن تزيد عدوانيتها أو تلجأ إلى الانسحاب والانطواء والاكتماب وكثيراً من النساء يلجأن إلى (الإنكار) بعده حيلة نفسية دفاعية فتدعي المرأة حين سؤالها عن الإنجاب أنّها لا تفكر إطلاقاً في فيه ولا تتأثر به وأنّ معاناتها الجسدية الحالية ليست لها أي علاقة بهذا الموضوع.

٥- لعل من أهم المشكلات التي تعانيها الأسرة غير المنجبة أو التي يتأخر إنجابها هي تدخل الأهل سوى من طرف الزوج أو الزوجة وقد يؤدي ذلك التدخل إلى الطلاق بين الزوجين - لاسيما- إذا كانت العلاقة بينهما ضعيفة حيث يسهل انهيارها تحت هذه الضغوط.

٦- تتحول الحياة الأسرية إلى مجموعة من التناقضات والتقلبات الكثيرة فالزوجين تربطهما مشكلة واحدة هي العقم لدرجة كبيرة فهما يعيشان وحدهما وتحوطهما تساؤلات أو اتهامات حول قدرتهما على أن ينجبا مثل بقية الناس، بمعنى أنّ الأزمة المشتركة توحدتهما وتقربهما إلى درجة شديدة، ولكنّها في أحيان أخرى يمكن أن نؤدي إلى تأجيج العدوانية بينهما وتبدأ الاتهامات المتبادلة كل طرف يتهم الآخر على أنّه سبب المشكلة أو أنّه يسعى للتخلي أو يلقي بالمسؤولية على الطرف الآخر أو لم يكن إيجابياً بدرجة كافية في البحث عن الحل والعلاج، وذلك كله قد ينهي حياة الأسرة بالهجر أو الطلاق أو تحول الأسرة إلى ما يدعى أسرة القشر الفارغ الخالية من أي محتوى عاطفي.

٧- وفي بعض الحالات تشعر المرأة بأنّها أصبحت قبيحة الشكل وتهمل مظهرها، وتفقد المعنى في الأشياء كلها من حولها، كذلك تفقد الرغبة في العلاقة الزوجية وتراها غير ذي فائدة وهنا تهمل نفسها وشؤونها المنزلية ما يزيد من حدة المشكلات الأسرية.

في نهاية هذه المقالة لا يسعنا إلا القول: لله دائماً في كل شيء حكمة، وعلى الإنسان الصبر فمتى ما وجد الرجل المرأة الصالحة فعليه أن لا يكثر بما يقوله الناس، وبالرغم من التقدم الكبير في مجال الطب لهذه العلة ولغيرها من العلل والأمراض لكلا الجنسين تبقى في نهاية الأمر إرادة الله ﷻ فوق إرادة الجميع وقد يكون في ذلك خيراً لهما، وعليهما أن لا يياسا أبداً من رحمة الله ﷻ وفضله.

وفي ذلك يقول رب العزة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْتَوُوا النِّسَاءَ كَرَاهًا وَلَا تَعْضَلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾ ﷻ